



السياق بين الإنشاء والتأويل في تمثل المعنى (الجرجاني نموذجاً)

صبيحة جمعة

المعهد العالي للغات بتونس - جامعة قرطاج

Sbiha.djemaa@gmail.com

Received: 22 Dec. 2014,

Revised: 15 Jun. 2015, Accepted: 30 Feb. 2015

Published online: 1 (May) 2015

السياق بين الإنشاء والتأويل في تمثل المعنى (الجرجاني نموذجاً)

صبيحة جمعة

المعهد العالي للغات بتونس - جامعة قرطاج

المُلخَص

المعنى هو هاجس كل المتعاملين مع الخطاب مشافهة وكتابة، بثاً و تقبلاً. فالمعنى هو الجامع بين طريقتي العملية التواصليّة عبر الخطاب. لذا بات تحديده أمراً تؤكده طبيعة العمليّة، إذ يروم الباحث رفع المعنى إلى متقبّل ما و يروم المتقبّل إدراك المعنى الذي يحمله ذلك الخطاب. وفي محاولة إدراك المعنى و ضبطه، سعى أجيال من المشتغلين في مسائل تحليل الخطاب ، إلى البحث عن الوسائل الموصلة إلى ذلك. ومثل «السياق» أبرز تلك الوسائل التي حددها الباحثون قديماً و حديثاً في «إنشاء» الخطاب و«تأويله». و يُعتبر عبد القاهر الجرجاني أبرز المنظرين اللغويين القدامى للسياق بنوعيه «اللغوي» و«غير اللغوي» وذلك بفضل نظريته المشهورة في النظم.

الكلمات المفتاحية: المعنى، السياق، السياق اللغوي، السياق غير اللغوي، الخطاب، الإنشاء، التأويل.



The Context of Composition and Interpretation in the Comprehension of Meaning (Al-Jorjaniy as a Model)

Djemaa Sabiha

University of Carthage

Abstract

All the participants in the speech acts are concerned with meaning at the level of sending and reception. In fact, the meaning links between the two parts of any communication act through discourse. For this reason, defining it has become a must. The sender is interested in delivering the meaning to the receiver. The receiver, in his turn, is concerned with understanding the meaning in that discourse.

In an attempt to comprehend the meaning and define it, several researchers working in the field of discourse analysis have been trying to find out the means that could attain this objective. "Context" has been defined as the most important means identified by old and contemporary researchers in the production of discourse and its interpretation. Abdel qaher Aljorjaniy can be considered to be an eminent theorist and linguist who scrutinized "the context" from both linguistic and non- linguistic perspective, thanks to his well known "theory of Al-Nadm".

Keywords: Meaning, context, linguistic context, non, linguistic context, discourse, composition, interpretation.

السياق بين الإنشاء والتأويل في تمثل المعنى (الجرجاني نموذجاً)

صبيحة جمعة

المعهد العالي للغات بتونس - جامعة قرطاج

مقدمة:

فالنص القرآني يمثل تعاليم الدين التي توجه الإنسان في دنياه وأخرته. وهذه التعاليم هي معاني الله وهذه المعاني باعتبارها مقصد الله لا يمكن أن تكون إلا موحدة أي لا تحتل تعدد القراءات للمعنى الواحد. لأنه إذا تعددت القراءات أي وجوه تقبل المعنى فقد يحمل ذلك الاعتقاد أن القرآن ليس نصاً واحداً وإنما هو نصوص متعددة بتعدد القراءات تماماً كالنص الأدبي الذي من تجليات الأدبية إن حصلت فيه تعدد قراءاته حتى لكأنه نصوص ونصوص، فإذا ما سحبنا هذه الصفة التي هي من سمات الإبداعات الفنية، لاسيما الأدب، على النص القرآني فقد يمثل ذلك خطراً على القرآن إذ يعامل النص المقدس معاملة النص الأدبي فتتعدد قراءاته وبما أن القرآن حمّل تعاليم دين واحد يتمثل في معانيه فإنه يصبح مهدداً بقدر تعدد مستويات المعنى الواحد وعلى قدر تعددها يصاب الدين في وحدته ويختلف فيه الناس فإذا به أديان وأديان على حسب تعدد القراءات والحال أن القرآن نص واحد نزل ميثاقاً لدين واحد. لذلك سعى كل اللغويين والبلاغيين ومفسري القرآن إلى استنباط مختلف الوسائل التي تحمي معاني القرآن من خطر التعدد حتى تفهم تلك المعاني فهماً موحداً يضمن وحدة الدين وبقاء النص مرجعاً واحداً لدين واحد لا سيما بعد وفاة الرسول الذي كان المفسر الأول لمعاني القرآن وكان يكفي المؤمنين حاجتهم لفهمه. ولكن بعد وفاته وجد المسلمون أنفسهم بحاجة إلى التسلح بمختلف الوسائل

إن البحث في مسألتين الإنشاء والتأويل هو بحث في طرق إنتاج الخطاب وتلقيه معني النظر في العوامل والمؤثرات الفاعلة في إنتاج الكلام وقراءته، وتعتبر هاتان المسألتان من القضايا الهامة التي شغلت الباحثين قديماً وحديثاً واختلفت الآراء حولهما باختلاف انتماءات المشتغلين عليهما من نحاة وأدباء وبلاغيين ولسانيين... والإنشاء والتأويل من أكثر المسائل التصاقاً بالمعنى، ومثل المعنى دوماً هاجساً لدى كل المشتغلين عليه كما مثل إشكالا في مفهومه وفي طرق إنتاجه ووسائل فهمه وقراءته، لذا سنسعى إلى محاولة رصد أهم المفاهيم التي أحاطت بالمعنى وبالعوامل إنتاجه وتقبله لا سيما في علاقته بعنصر السياق إنشاءً وتأويلاً وإدراكاً، لاسيما لدى عبد القاهر الجرجاني الذي بإرسائه نظرية النظم حدد طرق إنشاء الخطاب وتأويله.

1) المعنى بين الإشكال والوضوح:

مثل مفهوم المعنى منذ بدايات نشأة التفكير اللغوي والبلاغي هاجساً بعد الحدث القرآني وهو هاجس عدم فهم القرآن فهماً سليماً والخوف من ضياع معانيه.

١ - انظر حمدي (توفيق): مواقف البلاغيين والنقاد العرب من الاستعارة، نشر دار محمد علي الحامي بالاشتراك مع المعهد العالي للغات بتونس، ط ١، ٢٠٠٧، فصل هاجس المعنى، وانظر كذلك محمد عبد العظيم: من قضايا النص الشعري مسائل في المعنى، حيث تعرض فيه صاحبه إلى إشكالية مفهوم المعنى، المبحث الأول، مركز النشر الجامعي.

بعده المتنبئ^٤. إذ خرج هؤلاء الشعراء عن القوانين التي وضعها النحاة والبلاغيون وتجاوزوا الأساليب والمعاني التي ألقتها الذائقة العربية فبالغوا في معانيهم وأغرقوا في أقوالهم واستعملوا المجاز بإطلاق في أشعارهم وقد اختلف الباحثون في أسباب هذا التحول فذهب بعضهم إلى اعتبارها من تأثير الأدباء من الأصل الفارسي وذهب آخرون إلى اعتبارها نتيجة طبيعية لتطور الحياة العربية والذوق العربي ومهما يكن من أمر فسواء كان التأثير خارجياً أو هو تحول داخلي فقد ظهرت قضايا جديدة في حياة العربي جعلته إنساناً واعياً باحثاً ينظر إلى الحياة بمنظار جديد وأصبح يتأمل ذاته في علاقتها بالوجود لذا صار يخوض في مسائل لم يكن الخوض فيها أمراً مألوفاً أو شائعاً فصار يقلب في معاني الحياة والموت والبقاء والفناء. وهي مسائل تجريدية لم تعد تكفيها النظرة البسيطة إلى الأشياء مثلما كان يرى البدوي الحياة، في عضوية وبساطة فلم يكن يتجاوز وصف الأطلال والفرس والناقة ولم يكن يحتاج إلى وسائل تعبير كبرى ينشئ بها كلامه أو شعره بل أصبح الإنسان العربي لا سيما منذ القرن الثاني للهجرة يعيش حياة أكثر تعقيداً ولذلك أصبح يحتاج إلى وسائل تعبير أخرى أكثر عمقاً وقدرة للتعبير عنها وإنشاء كلامه، فلم تعد تكفيه تلك القواعد وتلك القوانين التي صاغها النحاة في بداية عهد القرآن مثلما لم تعد تكفيه تلك القواعد التي وضعها البلاغيون ليضيقوا المعنى سواء في إنتاجه وإنشائه أو في تقبله وتأويله، فحتى القرآن الكريم لم تعد تكفي معه تلك الوسائل البسيطة لفهمه خاصة أمام طعن الزنادقة والملحدين فلا بد من وسائل أخرى تصون معانيه لا سيما فيما يخص معاني الآيات المتشابهات التي أشكلت على الباحثين واختلف الباحثون حولها إلى فرق كل فرقة تفسرها حسب خلفياتها وتكوينها.

كل هذه الأمور المذكورة أنفا جعلت الباحثين يطورون بحوثهم ويستنبطون أفكاراً جديدة

لصيانة الدين والمحافظة على معانيه، باعتبارها معان مقدسة لا حق للإنسان في إخضاعها إلى سلطته نعني سلطة القراءة وحرية التأويل. لذا اتجه كل المشتغلين على النص والناشطين حوله من لغويين ونحاة ومفسرين إلى أن المعنى لا يمكن أن يكون إلا واحداً هو مقصد الله فوضعوا القواعد النحوية والبلاغية التي تحميه. بل وصل الأمر إلى تفعيل ذلك في دراسة النصوص الأدبية فيما بعد إذ دعا الباحثون إلى أن يكون الأدب بمختلف فنونه ناطقاً بمعنى واحد هو مقصد صاحبه وجعلوا لهذا المعنى قواعد وقوانين حتى يكون كذلك وكل كلام خارج عن هذه القوانين يصنف في باب "الكذب" أو "الخطأ" وكل كلام منصاع إلى هذه القوانين يدخل في دائرة "الصحة" و"الصواب".

لذلك رفض الباحثون في بداية الأمر التوسع في المعاني والمبالغة فيها لأنها تخرج عن العرف السائد وعن المألوف الدارج، لذا وضع النحاة القواعد النحوية التي تحمي الكلام من اللحن والتي تجعل الكلام سليماً في لفظه ومعناه وجمعها سيبويه في "الكتاب"^٢ ووضع البلاغيون ونقاد الأدب قواعد تحمي المعنى من التوسع في المبالغة ومن الإغراق في الخيال وجمعها الجاحظ في مؤلفاته لا سيما في "البيان والتبيين" لكن هذه القواعد لئن كانت محققة لصفة الثبات، ثبات المعاني والمعجم والتراكيب، فإنها كانت تعطل عمل الأدباء الفنانين الذين كانوا يرنون إلى شيء من التحرر وخصوصاً الشعراء الذين وسموا بالمجددين وقد تجلت بوادر التحدي، وإن كان نسبياً، للقواعد والأعراف التي كانت تدب عن الأساليب التقليدية في الإنشاء، لدى الشعراء المولدين بداية من القرن الثاني الهجري فبرز أبو نواس بخمرياته وأبو العتاهية بزهدياته وبشار بغزلياته واحتد الصراع بين المجددين المؤمنين بالتحول وأنصار القديم القائلين بمبدأ الثبات وتفاقم الخلاف مع ظهور أبي تمام ومن

٢- انظر: عمود الشعر كما فصل قواعد المرزوقي في مقدمة شرح ديوان الحماسة لأبي تمام.

٣- سيبويه: الكتاب، كامل أجزاءه، تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ط ٢.

٤- انظر ما كتب في المعارك الأدبية حول أبي تمام و حول المتنبئ ولاسيما ما جاء في "الموازنة" للامدي وفي "أخبار أبي تمام" للصولي وفي "الوساطة" للقاضي الجرجاني.

باختلاف الاختصاصات.

فالإنشاء لغة من جذر (ن.ش.ء) ومن معانيه «الخلق والابتكار والابتداء والارتفاع»، فمن أقوال العرب «أنشأ يفعل كذا، وأنشأ يقول كذا، ابتداء، وأنشأ الله الخلق، ينشئهم، إنشاء، إذا ابتداء خلقهم وأنشأت أنا الشيء، أنشئته إنشاء»^٦.

فالإنشاء في معناه المعجمي هو إيجاد شيء ليس له وجود من قبل.

أما الإنشاء اصطلاحاً فمعناه مختلف حسب المشتغلين عليه فهو عند النحاة قسم من أقسام الكلام إذ يذهبون إلى «أن الكلام ينقسم إلى خبر وطلب وإنشاء»^٧ فالخبر ما قبل التصديق والتكذيب والإنشاء ما لم يقبلهما جميعاً.

فالخبر من مثل قولك: جاء زيد / ما جاء زيد.

والإنشاء من مثل قولك: انطلق / يا زيد.

وصنّفوا الإنشاء إلى نداء وطلب وأمر ونهي واستفهام وتعجب ووردت هذه التصنيفات موزعة في كتب النحاة دون أن يفرّدوا للأسلوب الإنشائي باباً خاصاً بل جاءت معانيه منتشرة في مصنّفاتهم.

أما الإنشاء لدى الأدباء فنجد ابن قتيبة يجمع التعبير عنه في قوله: «أنشأ الكاتب الكتاب، ابتداء عمله على غير مثال يحتذيه»^٨ فهو إذن ابتكار شيء دون أن يكون له سابق وجود.

أما الإنشاء عند البلاغيين فهو «الكلام الموجود لنسبته، فيجب أن يُعلم أن نسبة المسند والمسند إليه لا يُوجدُهما الكلام، إن لا يوجب الكلام اتصافاً

مناسبة للتعامل مع مختلف المستجدات لذا تطورت المباحث اللغوية ضمن غيرها من المباحث وصار علماء اللغة يجتهدون في وضع أصول جديدة لإنشاء الخطاب وتحليله وأخذت المعارف وقد نحت بعد إلى التخصص والتدقيق تستفيد من بعضها البعض فاستفادت البلاغة من النحو واستفادت النحو من البلاغة وأفاد النقد الأدبي منهما جميعاً كما أفاد تفسير القرآن وتأويله من كل تلك العلوم. وتمخض هذا التفاعل بين مختلف صنوف المعارف ذات الصلة باللغة عن نتائج هامة يعيننا منها إجماع المهتمين بمختلف صنوف الخطاب، على أن عاملاً هاماً يدخل في عملية إنشاء المعنى وفي تحليله وتأويله، هو «السياق». لذا رأينا أن نسهم بالبحث فيه محاولين تحديده واستجلاء مقوماته بالرجوع إلى مباحث اللغويين القدامى وما جاء بوجه عام لدى اللسانيين المحدثين.

٢) السياق في الإنشاء والتأويل:

أن يحدّد الباحثون سواء كانوا قدامى أو محدثين المعنى عن طريق السياق يعني أنهم تجاوزوا ولو إلى حدّ البحث في المعنى عن طريق اللفظ المعجمي وحده وأصبح تحديد المعنى يخضع إلى مقاييس أخرى يراها الباحثون حسب تقديرنا أكثر أمانة لفهمه ولكن لئن اتفقوا في الوظيفة التي يمكن أن يؤديها السياق هل إنشاء الكلام وتأويله والتي تتمثل في تقريب المعنى وإدراكه فإنهم اختلفوا في تحديد ماهيته هل أن السياق في مكونات الكلام اللغوية أم أنه في المكونات غير اللغوية أي في مجموع العناصر الخارجية الحافّة بالخطاب وهي أنواع؟ وهذا الاتجاهان يجعلان السياق نوعين: سياق داخلي لغوي وسياق خارجي حالي.

وعلى حسب هذين التصنيفين في دراسة السياق سنحاول استقراء أهم الأفكار في تقديرنا، والتي نظرت للإنشاء والتلقي في علاقتها بالسياق.

إذا نظرنا في مفهوم الإنشاء لدى الباحثين اللغويين القدامى فإننا سنجد مختلفاً ومتعدداً

٥- السيوطي (جلال الدين): همس الهوامع في شرح جمع الجوامع،

الكويت، دار البحوث العلمية، ج ١

٦- ابن منظور (جمال الدين): لسان العرب، وفي شرح جمع الجامع، الكويت، دار البحوث العلمية مادة (ن ش ء)، دار صادر، بيروت، (دت)

٧- ابن الحاجب: الكافية في النحو، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٨٩١ ج ٢ ص ٣٢٢

٨- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم): الشعر والشعراء، ط، لندن، ١٩٠٢

أنَّ التَّأْوِيلَ هو "إِعَادَةُ بِنَائِهِ (الكَلَامِ) دَلَالِيًا" وَتَمَّ عَمَلِيَّةُ إِعَادَةِ الْبِنَاءِ تِلْكَ بِضَوَابِطِ أَهْمَهَا "الْمَقْصِدُ" وَ"السِّيَاقُ" وَجَعَلَ الْبَاحِثُونَ مَدَارَ اشْتِغَالِ التَّأْوِيلِ عَلَى الْمَعْنَى لَا عَلَى الْأَلْفَاظِ وَالْمَفْرَدَاتِ الَّتِي مَجَالُهَا عِلْمُ التَّفْسِيرِ، وَجَعَلُوا التَّأْوِيلَ الْعِلْمَ الَّذِي يَبْحَثُ فِي عَدُولِ الْأَلْفَاظِ عَنِ ظَوَاهِرِ مَدْلُولَاتِهَا.

أَمَّا التَّأْوِيلُ اصْطِلَاحًا فَهُوَ عِلْمٌ اقْتَرَنَ مِثْلَ غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ بِنَزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، إِذْ أَخَذَ الْعُلَمَاءُ يَبْحَثُونَ عَنِ الْوَسَائِلِ الْمُسَاعِدَةِ لِفَهْمِ النَّصِّ وَتَأْوِيلِهِ وَمِنْ هَذِهِ الْوَسَائِلِ رِبْطُهُ بِزَمَنِ نَزُولِهِ فَيُنْزَلُ التَّأْوِيلُ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ نَعْبِرَ عَنْهُ بِتَارِيخِيَّةِ (Historical meaning) وَمِنْ الْوَسَائِلِ الْمَعْتَمَدَةِ أَيْضًا رِبْطُ النَّصِّ بِمَيُولِ الْقَارِئِ وَاعْتِقَادَاتِهِ فَيَكُونُ التَّأْوِيلُ ذَاتِيًا (individual meaning) وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ التَّأْوِيلِ يَخْفِي وَرَاءَهُ مَخَاطِرُ كَثِيرَةٌ لَا سِيَّمَا إِذَا مَا تَعَلَّقَ بِالنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ إِذْ يَصْبِحُ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ خَاضِعًا لِمَيُولِ قَارِئِهِ وَانْتِمَائِهِ الْمَذْهَبِيِّ وَالْعَقْدِيِّ وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ^{١٤} إِلَى خَطَأِ مَنْ يؤولون الْقُرْآنَ عِتْبَارًا لِمَيُولِهِمْ وَانْتِمَائِهِمْ: فَهَمَّ يَلْبَسُونَ لَفْظَ الْقُرْآنِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنَى تَارَةٍ أَوْ يَحْمِلُونَهُ دَلَالَاتٍ لَا يَطْبِقُهَا فِي وَضْعِهِ الْأَصْلِيِّ فَيَصِيبُ خَطْؤُهُمُ الدَّالَّ وَالْمَدْلُولُ مَعًا.

إِنَّ هَذِهِ النَّظْرَةَ إِلَى التَّأْوِيلِ جَعَلَتْ الْبَاحِثِينَ الْعَرَبَ الْقَدَامَى يَحْضُرُونَ النَّصِّ فِي الْمَعْنَى الْوَاحِدِ وَانْعَكَسَتْ هَذِهِ النَّظْرَةُ أَيْضًا عَلَى الْأَدَبِ إِذْ رَأَوْا أَنَّ النَّصِّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ إِلَّا مَعْنَى وَاحِدًا هُوَ مَعْنَى صَاحِبِهِ أَوْ مَقْصِدُ مَنْتَجِهِ تَمَامًا كَمَعْنَى الْقُرْآنِ فَهِيَ مَعْنَى اللَّهِ تَمَثَّلَهُ وَتَحَدَّدَ مَقْاصِدُهُ، وَيَرْجِعُ سَبَبُ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْمَعْنَى فِي النَّصِّ الدِّينِيِّ وَالْمَعْنَى فِي الْخُطَابِ الْأَدْبِيِّ إِلَى مَرْكَزِ الدِّينِ فِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَعَلَى أَسَاسِ ذَلِكَ امْتَدَّتْ مَهْمَةُ التَّأْوِيلِ مِنْ فِضَاءِ الدِّينِ إِلَى فِضَاءِ الْأَدَبِ وَوَضَعَ الْبَاحِثُونَ بِمَخْتَلَفِ انْتِمَائِهِمْ الْقَوَاعِدَ

أَحَدَ بَصْفَةَ حَقِيقِيَّةٍ، كَالْقِيَامِ وَالْقَعُودِ فِي قَمٍ، وَاقْعَدُ... مِثْلًا... وَإِنَّمَا الَّذِي يُوْجِبُهُ الْكَلَامُ وَيَقْتَضِيهِ أَنَّ تِلْكَ النِّسْبَةَ تَدُلُّ عَلَى تَكْيِيفِهَا بِكَيْفِيَّةٍ عَائِدَةٍ فِي حُصُولِهَا إِلَى اللَّفْظِ، فَيُوجِبُ قَمٍ وَاقْعَدُ مِثْلًا، نِسْبَةَ الْقِيَامِ وَالْقَعُودِ لِلْمَخَاطَبِ مَكْيِّفِينَ، لِكُونِهِمَا مَأْمُورًا بِهِمَا، وَكُونَ الشَّيْءِ مَأْمُورًا بِهِ كَيْفِيَّةً يَرْجِعُ وَجُودُهَا إِلَى وَجُودِ صَيْغَةِ الْكَلَامِ"^{١٥}

فَالْإِنْشَاءُ إِذْنُ هُوَ صُورَةُ الْكَلَامِ يَنْشِئُهُ صَاحِبُهُ ابْتِدَاءً دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ نِسْبَةٌ خَارِجِيَّةٌ تَطَابِقُهُ أَوْ تَخَالُفُهُ، فَهُوَ بِهَذَا الْمَعْنَى كَلَامٌ لَا يَحْتَمِلُ الصَّدْقَ وَلَا الْكُذْبَ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِكَ: أَخْرَجَ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ لَيْسَ لَهَا وَجُودٌ خَارِجِيٌّ وَلَا تَحْتَمِلُ التَّصْدِيقَ وَلَا التَّكْذِيبَ.

تِلْكَ بَعْضُ النَّمَاذِجِ أَرَدْنَا أَنْ نُنَوِّدَهَا حَوْلَ مَفْهُومِ الْإِنْشَاءِ وَالَّتِي نَسْتَخْلُصُ مِنْهَا أَنَّ الْإِنْشَاءَ ضَرْبٌ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي اللُّغَةِ فِي بِنَاءِ الْكَلَامِ وَتَرْتِيبِ الْعِبَارَةِ فِي دَائِرَةِ فَنِّ الْكَلَامِ، لِذَا اتَّجَهَ الْبَاحِثُونَ إِلَى النَّظَرِ فِي وَضْعِ وَسَائِلِ إِِنْشَاءِ الْكَلَامِ وَقَوَاعِدِهِ مِنْ نَحْوِ وَصَرَفٍ وَقَدْ تَرَكَّزَتْ جُهُودُهُمْ عَلَى الْبَحْثِ فِي الْمَعْنَى وَالْمَقْاصِدِ مِنْهَا وَمِثْلَتْ هَذِهِ الْمَشَاغِلُ مَوَادِّ أُسَاسِيَّةٍ خُصُوصًا فِي الْمَبَاحِثِ الْبَلَاغِيَّةِ وَالنَّقْدِيَّةِ الْأَدْبِيَّةِ.

أَمَّا التَّأْوِيلُ فِي اللُّغَةِ فَهُوَ الْإِرْجَاعُ^{١٦}: أَوَّلُ الشَّيْءِ أَي رَجَعَ إِلَيْهِ، وَأَوَّلُ الْكَلَامِ يَعْنِي فَسَّرَهُ... فَكَأَنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ إِرْجَاعُ الْكَلِمَةِ الْمُرَادَةِ إِلَى أَسْلٍ أَبْعَدَ مِنَ الْمَعْنَى الْحَرِيَّةِ لَهَا، أَي إِرْجَاعُ الْمَعْنَى إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَعْنَى الْمَصْطَلَحِ عَلَيْهِ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى مَعْنَى الْمَعْنَى^{١٧} وَيَعْرِفُهُ صَاحِبُ لِسَانِ الْعَرَبِ بِقَوْلِهِ "الْأَوَّلُ الرَّجُوعُ... وَأَوَّلُ الْكَلَامِ وَتَأْوِيلُهُ: دَبَّرَهُ وَقَدَّرَهُ، وَتَأْوِيلُهُ وَفَسَّرَهُ... وَالْمُرَادُ بِالتَّأْوِيلِ نَقْلُ ظَاهِرِ اللَّفْظِ عَنِ وَضْعِهِ الْأَصْلِيِّ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لَوْلَاهُ مَا تَرَكَ ظَاهِرَ اللَّفْظِ"^{١٨} وَيَرَى صَاحِبُ "دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ"

٩- المغربي (البن يعقوب): مواهب الفتح، ج ١، ١٦٩.

١٠- المعجم الوجيز، دار الفريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢،

ص ٣٠

١١- قصي (مجدى سليم): بحث التأويل وتطور مفهومه في النص

الديني والأدبي

١٢- ابن منظور: لسان العرب، مادة (ء و ل)

١٣- الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح محمد عبده ومحمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص ٢٢٥-٢٢٦

١٤- ابن تيمية (أحمد عبد الحليم): دقائق التفسير، جمع وتحقيق

د. محمد السيد الجليند، ط ١، القاهرة، دار الأنصار، ١٩٧٨

به النَّظْم اللُّغوي للكلمات داخل التركيب النحوي^{١٦} فتجاوز العلماء بذلك تلك الدراسات التي توقفت عند حدِّ معاني المفردات ومن بين هؤلاء العلماء الذين دعوا إلى ضرورة الاهتمام بالسياق باعتباره عنصرا مهماً وقرينة ضرورية في تحديد المعنى وقد ذكره الزركشي وهو يتحدث عن تفسير بعض آيات القرآن الكريم العالم الرَّاعِب الأصبهاني (ت ٥٠٢ هـ) في كتابه «مفردات القرآن»، يقول الزركشي متحدِّثاً عن منهج الأصبهاني «وطريق التوصل إلى فهمه النَّظْر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالاتها بحسب السياق، وهذا يُعنى به الرَّاعِب كثيراً في كتاب «المفردات» فيذكر قيلاً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ، لأنَّه اقتنصه من السياق»^{١٧}.

وهذا الكلام يعني أنَّه لا يمكن أن نكتفي باستقراء البناء اللغوي للخطاب إذا ما رمنا تحليله وإنما لابدَّ أيضاً من تحديد قرائن سياقيته خارجة عن النَّصِّ اللغوي لنتمكن من بلوغ المعنى السليم من الخطاب لا سيَّما في النصوص التي تحتل أكثر من معنى وكما كان السياق ثرياً بمكوّناته كان اقتطاف المعنى أيسر وهاجس المعنى يدخل بالأساس في نشاط البيانيين.

ذاك هو وضع السياق، أوجزنا القول فيه اعتماداً على مصادر عربيّة وتبيّنا أهميّة دوره في إدراك المعنى، قدمنا ذلك بوجه عام، ولعلّ تقديمنا ذلك لا يكفي لنتمثّل تمثلاً واضحاً وجلياً علاقة السياق بالمعنى لذا رأينا أن نزيد الأمر

١٦- انظر نظريّة النَّظْم عند عبد القاهر الجرجاني بما هي "تَوْحِي معاني النحوي في معاني الكلم" - دلائل الإعجاز انظر كذلك تفسير الإمام الطبري إذ فيه إشارات عديدة على ضرورة استحضار السياق في فهم القرآن من ذلك إشارته إلى قول تلميذ ابن عباس مسلم بن يسار البصري (ت ١٠٠ هـ) وهو يؤكّد على أهميّة السياق في تحديد المعنى: "إذا حدّثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده" ج ١ ص ١٧ وانظر كذلك "مجاز القرآن" لأبي عبيدة إذ يتضمّن تحليلات لغويّة هامة للسياق.

١٧- الزركشي (بدر الدين): البحر المحيط، تح عبد القادر القاني وآخرين، ط ٢، الكويت، وزارة الأوقاف ١٤١٢ هـ - و كتابه "البرهان في علوم القرآن"، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢١، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩١ هـ.

والقوانين التي تصون وحدة المعنى وتضمن صحته نحواً وصرفاً وبلاغة وجعلوا النَّصَّ ينطق بمعنى واحد، حتّى ظهرت بعض البحوث التي رأت أنَّ النَّصَّ الأدبي لا يمكن أن يكون له معنى واحد بحكم طبيعة تعدّد صنوف المتلقين وتنوع قراءاتهم ودعت إلى انفتاح القراءات وتعدّد المعاني بحكم ارتباط النَّصِّ والمتلقّي بسياقات مختلفة لغوية وذاتية وحضارية وثقافية... لها الأثر الكبير في توجيه المعنى وفي تنويعه بين قارئ وآخر وتجعل للنَّصِّ دلالات متعدّدة يكون فيها المتلقي صاحب المعنى والتأويل في آن، وهذه البحوث التي أشاعت هذه الفكرة كثيرة سواء عربيّة قديمة أو غربية حديثة لأنَّ الغرب أيضاً كانت لهم نفس المعاناة إذ كان للكنيسة النصيب الكبير في توجيه المعنى الديني والذي انعكس أيضاً على الأدب.

٣) علاقة السياق بالمعنى في الدراسات العربيّة القديمة: نظرية النَّظْم نموذجاً:

يعتقد كثير من الباحثين أنَّ الاهتمام بالسياق بمختلف أنواعه باعتباره من القرائن الهامة المعينة على تحليل النصوص وفهمها هو من نتاج المباحث اللسانيّة الحديثة، ولكن عندما ننظر في البحوث العربيّة القديمة، نجد الكثير منها قد اهتمت بالسياق ووظفته أحسن توظيف في تأويل النصوص وفهمها لا سيَّما فهم النَّصِّ القرآني وتأويله، إذ تقطن المفسّرون مدى جدوى توظيف السياق في فهم النَّصِّ والكشف عن معانيه.

ولئن اختلف العلماء في تحديد السياق وموقعه من النَّصِّ هل هو داخل في ذات النَّصِّ أو هو خارج عنه. فإنهم اتفقوا جميعاً على أنَّ للسياق دوراً فعّالاً في تقريب المعاني ودفع اللبس.

فالسِّبَاق في اللغة يتكون من السياق واللاحق أما السِّبَاق فهو من «السَّبِق»، وهو التّقدّم، ويطلق على التّقدم في السير^{١٨} ونعني به موضع الشيء ما قبل النَّظْر أما اللاحق فهو من لحقته ولحقت به أي أدركته وهو كل شيء لحق شيئاً أو لحق به ويُطلق على ما بعد الشيء موضع النَّظْر والمقصود

الجرجاني تمثل مراحل في إنتاج الكلام ذكرها متتالية وذلك ليس إلا إجراء منهجياً لتوضيح المسألة. فابتداءً بالمرحلة الأولى هي عملية إنشاء الكلام وتتمثل في نظم الحروف ويكون «بتواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى»^{١٩}.

ومن الحروف إلى نظم الكلم و"تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتيبها حسب ترتيب المعنى في النفس، وليس هو النظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق"^{٢٠} وإنما بتوخي معاني النحو فيما بين الكلم ويكون بحسن التخيّر والنظر في كل باب من أبواب النحو^{٢١}.

كذا اهتمّ عبد القاهر بمختلف العناصر المكوّنة للخطاب وجعل لكل منها خصائص حتى تحقق داخل النظم أجمل عبارة.

إنّ أول فكرة اهتدى إليها الجرجاني فيما يتصل بنظريته في النظم هي ضرورة الجمع بين عنصري اللفظ والمعنى وذلك بالتناسب بينهما حسب شروط أهمّها:

- ضرورة تلاؤم اللفظة مع الألفاظ المجاورة لها في النظم.

- تتربّب الألفاظ في النطق حسب ترتّب المعاني في النفس.

- أن تتناسق دلالتها على الوجه الذي يرتضيه العقل مع اعتبار حال المنظوم بعضه من بعض.

«ذلك أنّ الأمر على ما قلناه من أنّ اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأنّ الكلم تتربّب في النطق بسبب ترتيب معانيها في النفس»^{٢٢} ويقول الجرجاني واصفاً مُجمل عملية إنشاء الكلام: "واعلم أنّ مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أنّ تتخذ أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض ويشدّ ارتباط ثان منها

١٩- نفسه

٢٠- نفسه

٢١- نفسه، انظر تحاليل عبد القاهر لمختلف أبواب النحو: التقديم والتأخير، الحذف والإضمار، الفصل والوصل...

٢٢- نفسه

توضيحاً باستقراء بعض المصادر العربيّة التي أولت أكثر من غيرها السياق دوراً هاماً في الكشف عن المعاني.

- ملامح النظرية السياقية في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني:

يعتبر عبد القاهر من أشهر علماء البلاغة الذين دعوا في بحوثهم المتعلقة بتحليل الخطاب إلى ضرورة الاهتمام بالسياق ومراعاته في عملية إنشاء الخطاب وفي تحليله.

ولئن اشتهرت نظريته في النظم بالتركيز على الجانب اللغوي للسياق من خلال التأكيد على أهمية التركيب في الكلام «بتوخي معاني النحو في معاني الكلم»^{١٨} فإن هذه النظرية لم تخل من الدعوة إلى تركيز الاهتمام على الجوانب الخارجية للسياق من أحداث وعلاقات وأحوال وظروف يقتضيها إنشاء الكلام أو تحليله، لذا وبناء على ذلك فإنّ الألفاظ المفردة والتراكيب النحوية لا تكون ذات أهمية إلا حينما نربطها بالعوامل الخارجية للخطاب حتى نتمكن من الوصول إلى دلالات دقيقة وذلك يعني مراعاة العلاقة والتفاعل بين مختلف العناصر اللغوية التي ينشئها النظم وبين العناصر الخارجية التي ينشئها مقام الخطاب من ظروف وأحوال ومواقف وانفعالات وعواطف وغيرها مما هو خارج البنية اللغوية للخطاب وهي العناصر التي أكدت على ضرورة مراعاتها النظريات السياقية الحديثة.

- أصناف السياق في نظرية النظم عند عبد القاهر:

أولى عبد القاهر أهمية كبرى لضمّ العبارة وإنشاء الكلام ورأى أنّه لا بدّ من الاهتمام بمختلف العناصر اللغوية في نظم العبارات وإنشاء الكلام أصواتاً وألفاظاً ومعانٍ وتراكيب. لذا ركز الاهتمام على ما يمكن اعتباره مراحل إنشاء الكلام. فصل الجرجاني بعضها عن بعض فصلاً اقتضته منهجية البحث، والإفهام. فالكلام ينشأ نشأة واحدة ولكن

١٨- دلائل الإعجاز ص ٦٧

ونحوي وعلى أساس ذلك يختار المتكلم من أبواب النحو ما يلائم كلامه. فيختار تركيبا مخصوصا لكلام مخصوص ومعنى مخصوص، يختلف عن تراكيب أخرى لمعانٍ أخرى.

إن للمعنى قيمة كبرى عند عبد القاهر فهو الأصل يقول: "ما في الألفاظ لولا المعنى، وهل الكلام إلا بمعناه؟" فالألفاظ خدم للمعاني وتابعة لها، وأن اللغة ليست ألفاظا وإنما هي مجموعة من العلاقات اللغوية يقول عبد القاهر: "وإذا قد عرفت هذه الجملة فينبغي أن تنظر إلى هذه المعاني واحدا واحدا، وتعرف محصولها وحقاتها... ولا يخفى على من له أدنى تمييز أن الأغراض التي تكون للناس في ذلك لا تعرف من الألفاظ، ولكن تكون المعاني، المعاني الحاصلة من مجموع الكلام أدلة على المقاصد والأغراض، وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب فترى الرجل منهم يرى ويعلم أن الإنسان لا يستطيع أن يجيء بالألفاظ مرتبة إلا من بعد أن يفكر في المعاني ويرتبها في نفسه"^{٢٥}.

كذا نتبين من خلال نظرية النظم أن عبد القاهر يولي أهمية كبرى للجانب اللغوي من السياق في إنشاء الكلام وتحليله على مستوى بنية الكلام وتركيبه صوتيا وصرفيا ونحويا ولكنه لم يهمل الجانب الخارجي من السياق نعني عناصر المقام ومقتضى الحال. وبمراعاة التفاعلات المتواصلة بين مختلف العناصر والدلالات المعجمية والصرفية والنحوية والمقامية والحالية وغيرها مما يساهم في تكوين الخطاب يمكن التوصل حسب عبد القاهر إلى الغرض أو المقصد أي ما أسماه "بمعنى المعنى". وهو المعنى الأقصى الذي يمكن أن نتوصل إليه من الخطاب. وهو المعنى الذي على أساسه تقوم البلاغة عند العرب وهي

بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني، يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك"^{٢٣} فعلية إنشاء الكلام كالبناء المحكم الذي ترصّف أحجاره بنظام دقيق.

واهتمام عبد القاهر بعملية إنشاء الكلام يشمل عملية فهمه وتأويله أيضا فمعرفة المتكلم مسائل الإنشاء وآلياته وشروطه متأكدة هي أيضا لدى المتقبل لتحصل بين الطرفين عملية التواصل عبر الخطاب حتى لا يقع السامع أو القارئ في لبس إدراك المعنى. وللسياق اللغوي دور هام في تحقيق الفهم السليم يقول الجرجاني: "واعلم أن الفائدة تعظم في هذا الضرب من الكلام إذا أنت أحسنت النظر فيما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة من غير أن تغير من لفظه شيئا، أو تحوّل كلمة عن مكانها إلى مكان آخر، وهو الذي وسّع مجال التأويل والتفسير، حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين أو أكثر، ويفسرون البيت الواحد عدّة تفاسير... فأبى تبدل في التفكير يجب أن يتبعه تبدل في الكلام زيادة أو أكثر، وأي اضطراب في الفكر يتبعه اضطراب في تركيب الكلام... فتبدل المعاني من موضع إلى آخر ومن مجال إلى مجال يتبعه لا محالة تبدل بالألفاظ... واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلام ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبين بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك"^{٢٤}.

فبعد القاهر إذن يرجح المزية في عملية الإنشاء وحسن الاتساق إلى معاني النحو وترابط بعضها ببعض لا إلى الألفاظ المفردة، فالتركيب للجملة أو الخطاب حسب عبد القاهر يكون بناء للمعنى لا للفظ وهذا المعنى المقصود ليس ذلك المعنى الفردي المعزول أي المعنى المعجمي للكلمات المعزولة وإنما هو ذلك المعنى الجملي الذي ينشأ بتناسق المعاني بعضها ببعض في تناسق فكري

٢٢- نفسه

٢٤- نفسه ص ٢٦٥

٢٥- نفسه ص ٢٦٥ - ٢٨٠ - ٢٦٨

الحال، وهذه المعاني التي يكشف عنها السياق اللغوي في علاقته بالسياق المقامي يعبر عنها ميلاد بالمعاني الثواني^{٢٩} وهي التي يعبر عنها عبد القاهر في صيغة المفرد "بمعنى المعنى" والتي نصل إليها عبر واسطة تبيينها خلال السياق اللغوي للكلام.

ولإثبات ذلك استقرأ الجرجاني بعض مظاهر الإنشاء مبينا السياق اللغوي فيها واستنتج أن كل نوع من أنواع الكلام لدى الإنسان إنما هو إنشاء فالخبر وجميع الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه... وتوصف بأنها مقاصد وأغراض^{٣٠} ويرى أن الخبر هو الأصل في معاني الكلام^{٣١}.

فالإنشاء إذن عند عبد القاهر هو إنتاج الكلام ولا يقتصر مفهوم الإنشاء عنده على أقسام الإنشاء التي حددها النحاة قبله ونعني بها الاستفهام والأمر والنهي والنداء والتعجب، بل إن الإنشاء لديه يشملها جميعا فضلا عن الخبر، فيكون عبد القاهر أول من جمع بين الخبر والإنشاء في قسم واحد هو معاني الكلام والتي تتميز بين مراتبها عن طريق النحو ومعانيه ووجوهه وفروقه من تقديم وتأخير وحذف وفصل ووصل وغيرها وباستعمال هذه المعاني وبالتصرف فيها تبرز مزية كلام عن آخر ونكتشف حركية النحو وحيويته عند عبد القاهر فالقواعد الثابتة التي وضعها النحاة قياسا على المنطق والتي ضنوا أنها لا تكون إلا كذلك أحيانا الجرجاني من جديد وبين أن ما ينشئ فيها الروح ويحركها إنما هي مقاصد المتكلم وأغراضه ونفسيته ومختلف الظروف الحاقفة بلحظة إنشاء الكلام وعناصر المقام ومقتضى الحال. والتي منها تتولد من المعنى الواحد معان ومعان.

إن النحو بهذا المعنى عند عبد القاهر هو نحو تحويلي إذ تصرف في تراكيبه حسب أغراضنا وهو نحو توليدي إذ تتولد من المعنى الواحد معان عدة، ذلك ما أثبتته عبد القاهر من خلال تحاليه

بلاغة الفهم والإفهام^{٣٢}، وهو المحور الذي يجمع بين طريفي الخطاب ونعني بهما المتكلم والمتقبل أو هما الناظم والمستمع عند الجرجاني أي منشئ الكلام ومتلقيه تحليلا وتأويلا. وما يجمع بينهما حسب عبد القاهر علم النحو ومعانيه ووجوهه وفروقه، فبالنحو ننشئ الكلام وبه نفهمه وبه تدرك المعاني الكبرى والعميقة في الخطاب والتي "توصف بأنها مقاصد وأغراض"^{٣٣}.

إن عبد القاهر الجرجاني إذ اهتم بعملية إنشاء الخطاب كان يرى أن مقاصد المتكلم ومعانيه هي التي تحدّد ما يناسبها من معاني النحو الحاصلة في نفسه مسبقا، وهذا يعني أن تميّز كلام عن آخر يظهر في السياق اللغوي الذي يميّزه باعتبار أن كل سياق لغوي مخصوص. وباختلاف المعاني تختلف السياقات اللغوية وهو يميّز معنى ما. وهو المعنى الذي يرتبط بنفسية صاحبه وباعتقاداته وبما يحيط به من عناصر مقامية وحالية، هو المعنى الذي يعبر عنه صاحبه في سياق لغوي مخصوص. وباختلاف المعاني تختلف السياقات اللغوية وهو ما جعل البلاغيين قديما يحللون الكلام ويستقرئونه انطلاقا من تركيبه النحوي وجعلوا النحو أساس كل إنشاء وأداة أساسية في كل عمليات تحليل الخطاب. وتتميز عبد القاهر من خلال نظرية "النظم" بدراسة معاني النحو وأثرها في معاني الكلام فرأى أن المعاني صنفان:

*الأولى نحوية مجردة يشترك في معرفتها كل الناس، ويعرفها خالد ميلاد بالمعاني الأول^{٣٤}

*والثانية نحوية مقصدية تكون في تركيب مخصوص يطابق أغراض المتكلم ومقاصده في علاقتها بمختلف عناصر المقام ومقتضى

٢٦- انظر "البيان والتبيين" للجاحظ و تأسس مؤلفه على هذين المفهومين باعتبار أن البلاغة عند الجاحظ فهم وإفهام وهي الفكرة التي زاد في تدعيمها عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"

٢٧- دلائل الإعجاز، ص ٤٠٦

٢٨- ميلا (خالد): الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية، نشر كلية الآداب بمتونة بالاشتراك مع المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ٢٠٠١، ص ٢٢٥

٢٩- نفسه

٣٠- دلائل الإعجاز، ص ٤٠٦

٣١- نفسه، ص ٤٠٥

وكان التردد فيه^{٣٦}. فهذا القول يثبت أن المتكلم لا يحتاج إلى التقديم أو التأخير في خطابه إلا لفائدة ما وليس التقديم أو التأخير لمجرد ذاته أو لتوسعه في الكلام.

وهذا يثبت أن إنشاء المعنى في نظر عبد القاهر يحتاج إلى اختيار دقيق للسياق اللغوي الذي يكشفه ويعبر عنه، فالتكلم إذن يختار معانيه ثم يطلب البناء اللغوي الذي يختص به ذلك المعنى^{٣٧}.

وبين عبد القاهر من خلال تحاليله أنه بالإضافة إلى دور السياق اللغوي للكلام في كشف المعاني لا بد من توفر عناصر أخرى خارجية لا سيما في استخلاص الدرجة الثانية من المعنى والذي عبر عنه الجرجاني بمعنى المعنى وهي الدرجة التي يرتفع فيها الكلام من المستوى العادي إلى المستوى البلاغي وهذه العناصر مرتبطة بالمقام وبمقتضى الحال وهي العناصر التي يمكنها أن تجعل المتكلم يحسن وضع الألفاظ في مواضعها أي أنها تجعله يحسن اختيار السياق اللغوي الذي يناسب معانيه. وهذا يعني أن العلاقة جدلية بين السياق الخارجي للكلام والسياق اللغوي. ويبقى النحو عند عبد القاهر هو المرتكز الذي عليه يبني الكلام، وبه يمكن أن نفاضل بين كلام وآخر، إن المسألة إذن عند عبد القاهر هي علاقة المعنى النحوي المخصوص الذي يمثله السياق اللغوي بغرض المتكلم الذي لا يظهر إلا في علاقة المعنى الأول بالمقام ومقتضى الحال، ويتمثل في معنى المعنى أو المعنى البلاغي للكلام. ومثل خالد ميلاد هذه العلاقة من الرسم التالي:

النحوية لبعض المعاني الكلامية^{٣٢} يقول: اعلم أن الوجوه والفروق... ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض^{٣٣} ويضيف الجرجاني مبرزا قيمة السياق اللغوي ومزيته في الكلام: بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم^{٣٤} ومن المواضع التي حلها عبد القاهر التقديم والتأخير يقول: "ومثاله ما تصنعه يزيد والمنطلق حيث تقول مرة: زيد المنطلق، فأنت في هذا تقدم المنطلق على أن يكون متروكا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير فيكون خبر مبتدأ كما كان أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ أو كذلك لم تؤخر زيدا على أن يكون مبتدأ كما كان بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبرا. وأظهر من هذا قولنا: ضربت زيدا وزيد ضربته، لم تقدم زيدا على أن يكون مفعولا لا منصوبا بالفعل كما كان ولكن على أن ترفعه بالابتداء وتشغل الفعل بضميره وتجعله في موضع الخبر له"^{٣٥}.

وبين عبد القاهر أن التصرف في وجوه النحو وفروقه لا يكون إلا لفائدة، والتقديم والتأخير كذلك يقول معللا رأيه في هذه المسألة: "ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة، فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت: أفعلت؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده. وإذا قلت: أنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو

٣٢- انظر "دلائل الإعجاز"

انظر كذلك رسالتنا لنيل شهادة الدكتوراة بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، وموضوعها "التفكير البلاغي من الأدب إلى النحو: من الجاحظ إلى الجرجاني" الباب الثالث منها .

٣٣- دلائل الإعجاز، ص ٦٩

٣٤- نفسه

٣٥- نفسه، ص ٨٣ - ٨٤

٣٦- نفسه، ص ٨٧

٣٧- انظر تحليل عبد القاهر لبقيّة الوجوه النحوية من حذف وفصل ووصل وغيرها في "دلائل الإعجاز" والتي أثبت من خلالها القيمة البلاغية للاستعمالات المخصوصة لهذه المعاني النحوية.

الواحد الذي يحمل إفادة ما قد يتغير إذا تغير السياق المقامي، ولذلك لابد حسب عبد القاهر من توفر ملكة لغوية نحوية لدى المتكلم تساعد على إنشاء خطابه وتمكنه من التصرف في استعمالها حسب معانيه، وهي ذات الملكة التي لابد أن تتوفر لدى المستمع حتى يقدر على فهم المخاطب وتأويل معانيه، وهذا الأمر يجعلنا نستنتج أن عبد القاهر وهو يؤسس لنظرية النظم كان يميز بين أمرين هاميين هما الملكة العامة للغة أي مجموع القواعد اللغوية التي يشترك فيها الناس وبين الاستعمالات الخاصة لتلك القواعد وهي التي ترتبط بالمعنى المخصوص الذي ينشئه المتكلم لخطبة إلقاء الكلام وهذه الاستعمالات المخصوصة عبر عنها الجرجاني «بمعاني النحو» وهي المعاني التي ينشئها المتكلم في نفسه أولاً ثم يعبر عنها في النطق بالألفاظ والمواضع المناسبة لها، وبذلك يكون المتكلم قد وظف تلك القواعد المشتركة توظيفاً دلاليًا حتى تكون في خدمة السياق التركيبي الذي يناسبها، لأن «العلم بمواضع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق»³⁸.

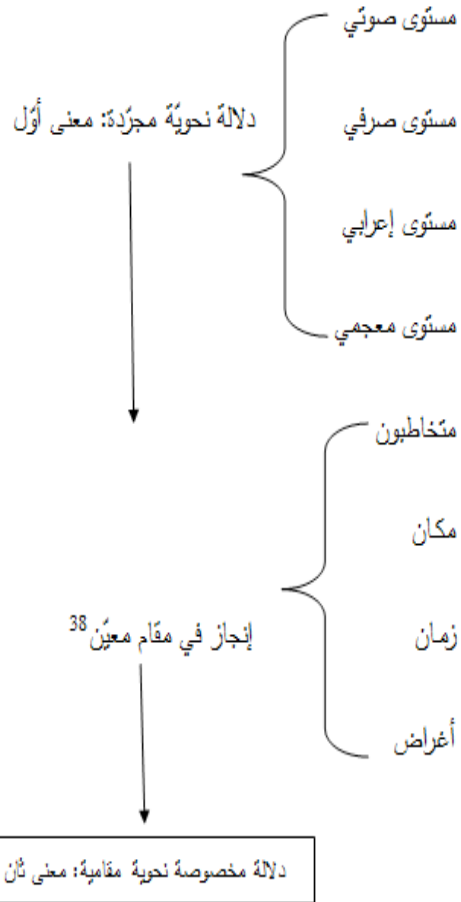
فتتحول بذلك المعاني النحوية العامة إلى معانٍ نحوية خاصة يحددها المعنى الغرض أو المعنى المقصد.

تبيّننا من خلال ما تقدّم أنّ نظرية النظم عند الجرجاني تأسست على أساس سياقات مختلفة استتجناها من خلال وصفه للمراحل التي تمرّ بها عملية إنشاء الكلام نفسها ونحددها كما يلي:

أ- توفر كفاءة لغوية في ذهن المتكلم والمتمثلة في جملة القواعد اللغوية العامة

ب- حضور المعنى المخصوص في ذهن المتكلم في علاقته بمختلف الظروف والسياقات: سواء كانت نفسية أو ثقافية أو مقامية أو حالية أو غيرها.

ج- اختيار السياق التركيبي المناسب الذي يعبر عن المعنى الذهني.



نتبين ممّا تقدّم أنّ نظرية النظم عند عبد القاهر والتي تأسست على أصول إنشاء الخطاب وتحليله، نظرية سياقية إذ جعلت من السياق بمختلف فروع اللغوية منها والمقامية والحالية أهم هذه الأصول وقد تحسّنا صداها في اللسانيات الحديثة لا سيّما مع من وسموا بالسياقيين، بل إنّنا تمثّلنا قديراً من التماهي أو بعض نقاط التشابك بين ما نظر له عبد القاهر وما نظر له المحدثون في هذا الشأن نعني ما يتعلّق بأسس الإنشاء والتأويل.

وانتهينا من خلال دراستنا نظرية النظم إلى أنّ رصد المقامات والأحوال أمر مهمّ في إنشاء الخطاب وتأويله مع ضرورة مراعاة ما يناسبها من تراكيب نحوية لأنّ النظم مثلما بين عبد القاهر هو الذي يبرز دور السياق في تحديد المعنى، فالتركيب

٣٩- دلائل الإعجاز، ص ٥٤

٢٨- الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، ص ٣٩٠

التركيبية التي يحصل فيها الحذف والإضمار والزيادة والنداء وغير ذلك وذكر عبد القاهر أمثلة عديدة من هذه الظواهر ولا سيما فيما يتعلق بظاهرة الحذف لأنه يعتبرها أحد عوامل التأويل التي تتطلب الرجوع إلى الأصل التركيبي للكلام لا سيما إذا ما تعلق الأمر بحذف أحد العناصر التركيبية الأساسية لبناء الكلام إذ يكون التأويل النحوي عند ذلك ضرورياً، وأورد الجرجاني على سبيل المثال: حذف المبتدأ وحذف الفعل وبين أن الحركة الإعرابية دليل على وجود الحذف فضلاً عن السياق باعتباره قرينة هامة تدل على وجود الحذف ومن الأمثلة التي اعتمدها حذف المبتدأ كما في قول الشاعر:

رُبَّ قَوَاءٍ أَدَاعَ الْمَعْصِرَاتِ بِهِ

وكل حيران سار ماؤه خضل

يقول عبد القاهر: أراد: ذاك ربع قواء، أو هو ربع قواء^{٤١}

فحالة الرفع إذن الموجودة في أول الكلام والسياق التركيبي الدال على وجود نقص في المعنى هو الذي دل على وجود حذف في موطن المبتدأ. مثلما يدل النصب على وجود حذف في موطن الفعل يقول عبد القاهر: ” وكما يضمرون المبتدأ فيرفعون، فقد يضمرون الفعل فينصبون... ” ومثل ذلك بقول الشاعر:

ديار مية إذ هي تساعفنا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب^{٤٢}.

يعقب على ذلك عبد القاهر بقوله: أنشده بنصب ”ديار“، على إضمار فعل كأنه قال: اذكر ديار مية^{٤٣}

نتبين مما تقدم أن السياق التركيبي هو الطريق أو القرينة الأساسية الموصلة إلى إدراك المعنى وتأويله. وهذه هي الطريق هي في حقيقة الأمر المنهج الذي ينتهجه النحويون

الاستعمال المخصوص للقواعد النحوية المشتركة التصرف في القاعدة الأصل وتحويلها إلى قاعدة نحوية مخصوصة يطلبها المعنى المقصود.

ويمكن أن نمثل لهذه العمليات بقول عبد القاهر: «أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق»^{٤٤} فالمتكلم إذن يبني المعنى العام للكلام ثم يختار التركيب المخصوص لمعناه المخصوص أيضاً، فالعنى العام في هذه الأمثلة هو انطلاق زيد ولكن حسب أغراضنا نختار التركيب المناسب الذي يعبر عن المعنى الخاص، وهذه المعاني الخاصة التي قدمها عبد القاهر تحمل عبر تأويلات مختلفة يكون فيها السياق التركيبي هو الحامل إليها، وحسب أغراضنا نبني الكلام، وعلى حسب نظم الكلام تبرز بلاغة الكلام أيضاً أي جمال الخطاب ورشاقة الكلام.

فبعد القاهر النحوي البلاغي ليس يهمله من البنى التركيبية النحوية في الخطاب إلا ما قد تنشئه من أثر جمالي ومن بعد فني فالجرجاني انطلق من كونه نحويًا ينظر في قواعد النحو وما يترتب عن استعمالها من صور مختلفة للكلام إلى كونه بلاغيًا ينظر في جمال الخطاب الحاصل من حسن التصرف في تلك القواعد النحوية العامة حسب الأغراض وحسب مناسبتها لمختلف المقامات والحالات التي ينشأ فيها الكلام.

وعلى أساس ما تقدم فإن تأويل الكلام عند عبد القاهر صنفان إثنان:

الصنف الأول: يتعلّق بالجانب النحوي للكلام.

ويتعلّق بالصنف الثاني: بالجانب الدلالي للكلام.

فأمّا التأويل الذي يتعلّق بالجانب النحوي التركيبي للكلام فيشمل بالخصوص الظواهر

٤١- دلائل الإعجاز، ص ١٤٦

٤٢- نفسه، ص ١٥٦

٤٣- دلائل الإعجاز، ص ١٥٦

٤٤- دلائل الإعجاز، ص ٢٥٧ تح محمد عبد المنعم خفاجي

معه البيان، حتى وصل المعنى إلى القلب، مع وصول اللفظ إلى السمع واستقر في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن^{٤٤}.

كذا تمكن عبد القاهر وهو يبحث في قضية "النظم" من التوصل إلى اكتشاف أمور هامة متعلقة بنشأة الخطاب وتحليله وجدنا صدى لها في النظريات اللسانية الحديثة لا سيما في "نظرية التلقي" و"النظريات السياقية" التي سعت إلى وضع أصول فهم الخطاب وتأويله. لذا، وبناء على ما رصدناه من التقارب بين آراء عبد القاهر وبعض ما جاء في متعلقات الخطاب من النظريات الحديثة وهو تقارب يبلغ حد التقاطع بل التماهي أحيانا، رأينا أن نوجه اهتمامنا إلى البحث في أسس هذه النظريات التأويلية الحديثة وإلى استجلاء أهم الإضافات التي حققتها لا سيما وأن عبد القاهر قد ألمّ حسب تقديرنا بمختلف الآليات المحيطة بالخطاب من خلال نظريته الشهيرة في "النظم" التي أقامها على التناسب بين مختلف العناصر المكوّنة للخطاب: لفظا ومعانيا وتراكيبا، إذ انطلق من مقاصد المتكلم وحالات الخطاب وما يترتب على ذلك من كلام يتميز بخواص تراكيبه التي تتلاءم مع المقامات التي تحفّ بالكلام. ولخص الجرجاني نظريته في إنشاء الكلام وتحليله في قوله: وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها... وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه...^{٤٥}

لذا سعى الجرجاني إلى إبراز طرق التبليغ الفعّال بربط كل عناصر الكلام بعضها ببعض: اللغوية منها بمعرفة خصائص اللغة والخارجة عنها بمطابقة المقام ومقتضى الحال للمقال لأنّ المعنى يختلف حسب السياق اللغوي الذي يوجد فيه وحسب ظروف النصّ الحاقّة به وبحسب كل ذلك

في تأويل الكلام وذلك بتصنيفهم الكلام إلى "السليم" و"الخاطئ"، فالسليم ما جاء ترتيبه حسب القواعد النحويّة المتفق عليها والخاطئ ما خرج عن تلك القواعد. فكأنّ النحاة يتناسون أنّ بلاغة الكلام وجماله تكمن في التصرف الذاتي في تلك القواعد الأصول وهو الأمر الذي سعى إلى إبرازه عبد القاهر البلاغيّ وبين أنّ التصرف في التراكيب النحويّة وتحويل مواضعها حسب ما يقتضيه السياق يرجع بفائدة كبرى على اللغة بصفة عامّة وتتمثل الفائدة في جعل اللغة بنحوها وصرّفها ومعجمها قادرة على أن تولّد دلالات ودلالات. ومن ذلك ينشأ الصنف الثاني من التأويل وهو التأويل الدلالي حيث يجتمع السياق التركيبي بمختلف أنواع السياقات الأخرى فيخرج اللفظ عن معناه العاديّ ليتفاعل مع بقية عناصر الكلام وينشأ عن ذلك التفاعل ما لا حصر له من الدلالات والتي تدخل حسب تعبير عبد القاهر في "معنى المعنى" وهو الدرجة التي يبلغها المعنى والتي لا يمكن إدراكها إلا بربط الكلام بمختلف سياقاته للحصول على "الواسطة" حسب عبارة عبد القاهر ويعني أن ندرك معنى المعنى عن طريق قرينة وهذه القرينة توجد داخل السياق اللغوي للكلام مثلما توجد خارجه عن طريق المقامات والأحوال.

كذا بنى عبد القاهر نظريته في الخطاب إنشاءً وتأويلا والتي جمع فيها بين صرامة تكوينه النحوي وذوقه البلاغي الذي أعانه على النفاذ إلى أسرار إنشاء الخطاب من جهة وعلى إدراك خفايا النصّ وكشف إحياءاته من جهة أخرى ممّا جعله يتجاوز صرامة النحاة ويسير في طريق البلاغيين الباحثين عن أسرار جمال النصّ وآليات تأويله وهي آليات وضعها على أساس الجمع بين دراسة النفس وبين مختلف السياقات الحاقّة بها لحظة إنشاء الكلام، فجمال الصورة الاستعاريّة مثلا يتأتى حسب الجرجاني من "استعارة وقعت موقعها، وأصاب غرضها، أو حسن ترتيب تكامل

٤٤- أسرار البلاغة ، ص ١٦

٤٥- دلائل الإعجاز ، ص ٩٥

السياق من خلال حديثه عن "خواص التراكيب" فإنه لم يُغفل الجانب غير اللغوي منه من خلال انتباهه إلى دور "المقام في المقال" وانتهى النظر في السياق إلى نظرية متكاملة لدى المحدثين إذ استأثر لديهم باهتمام كبير ولاسيما عند اللغوي الإنجليزي فيرث الذي كانت له أفكار لا يُستهان بها في التنبيه إلى دور السياق في الوصول إلى المعنى ولاسيما في تركيزه على "سياق الحال" وهذه الأفكار تمثلت قيمتها في كونها جاءت على منهج علمي قوامه الحجج والبراهين مما جعلها تتحول فعلا إلى نظرية علمية يرجع إليها كل من رام البحث في المعنى، ولكن هذا الإنجاز الحديث والهام في العلوم اللغوية لا يمكنه أبدا أن يحجب عنا نشاط العلماء العرب القدامى وما تبهوا إليه من دور السياق في تحديد المعنى لا سيما لدى البيانين منهم.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر والمراجع العربية:

ابن تيمية (أحمد عبد الحليم): دقائق التفسير، جمع وتح د. محمد السيد الجليند، ط ١، القاهرة - دار الأنصار، ١٩٧٨.

الجاحظ (أبو عثمان): البيان والتبيين، دار الفكر للجمع، ١٩٦٨.

الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح محمد عبده ومحمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان (د.ت).

ابن الحاجب (عثمان بن عمر بن أبي بكر): الكافية في النحو، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٨٩١.

حسان (تمام): اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة، المغرب، (د.ت).

مناهج البحث في اللغة، الدار البيضاء، دار الثقافة، (د.ت).

اللغة العربية معناها ومبناها، الدار البيضاء، دار الثقافة، (د.ت).

تختلف التأويلات وتتعدد القراءات. كذا يكون عبد القاهر أول من فتح باب تعدد المعاني والقراءات أمام القارئ العربي الذي بقي مكبلا طيلة ما يقارب خمسة قرون بهاجس المعنى الواحد الذي يمثل مقصد المتكلم والذي على القارئ أن يكتشفه ولا يكتشف غيره حتى لا ينزلق ويقع في الخطأ، كذا انحسرت القراءة في البحث عن معنى المتكلم لا عن إمكانات النص فتغيب جماليات القول تحت غمار البحث عن مقصد القائل تصوره حقيقة ثابتة^{٤٦}. ذلك بعض ما ترتب على ما وضعه النحاة والنقاد من قواعد حددت من حرية الإبداع بتا ومن حرية التأويل تقبلا إذ حصرت النص في أن ينطق بمعنى واحد. لكن عبد القاهر اللغوي البلاغي الواعي بإمكانات اللغة في توسيع مدى الخطاب حرك ما كان ساكنا وما اعتبره العلماء السابقون ثابتا، فجعل النحو تحويليا تحرك قواعده المشاعر وحالات النفس والظروف الحافة وجعل الدلالات توليدية، تتولد من المعنى الواحد معان عديدة قد لا يحصرها العد.

خاتمة:

كذا مثل السياق مشغلا مهما لدى الباحثين اللغويين قديما وحديثا في تحديد الدلالة وإدراك المعنى وهو مبحث أصيل إذ بدأ النظر في السياق لدى القدامى في شكل إرهابات ولعل عبد القاهر الجرجاني يعتبر من الرواد الأوائل الذين انتبهوا إلى أهمية السياق في كشف المعنى من خلال نظرية النظم ولئن ركز اهتمامه على الجانب اللغوي من

٤٦- انظر: "من قضايا النص الشعري مسائل في المعنى" المبحث الثالث: صناعة المعنى بين تسلط النماذج وتمرد الإبداع، ص ١٩٠ ... وما بعدها.

- انظر كذلك: تمام حسان: "اللغة المعيارية والوصفية، دار الثقافة، المغرب، (د.ت)

- فاردينان دي سوسير: دروس في الأسنوية العامة، تعريب صالح القرماي، محمد الشاوش، محمد عجينة، دار العربية للكتاب، تونس - ليبيا، ١٩٨٥.

و انظر كذلك: عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسه المعرفية، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦، حيث تحدث الكاتب عن المعيار والاستعمال.

إن هذه المباحث جميعها أثبتت انضباط المتكلم لسلطان العرف والقوانين الجماعية.

- حمدي (توفيق): مواقف البلاغيين والنقاد العرب من الاستعارة، نشر دار محمد علي الحامي بالاشتراك مع المعهد العالي للغات بتونس، ط ١، ٢٠٠٧.
- ديسوسير (فاردنيان): دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، ١٩٨٥.
- الزركشي (بدر الدين): البحر المحيط، تح عبد القادر القاني وآخرين، ط ٢، الكويت، وزارة الأوقاف، ١٤١٣هـ.
- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢١، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩١هـ.
- سيبويه: الكتاب، تح وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ط ٣.
- السيوطي (جلال الدين)، همس الهوامع في شرح جمع الجوامع، دار البحوث العلمية، الكويت، (د.ت).
- الطبري (علي إبراهيم محمد): تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن: تقريب وتهذيب، دار القلم، ١٩٩٧.
- عبد العظيم (محمد): من قضايا النص الشعري مسائل في المعنى، مركز النشر الجامعي، تونس، ٢٠٠٩.
- أبو عبيدة: تح: محمد فؤاد سيزكين، مؤسسة الرسالة ط ٢، بيروت، ١٩٨١.
- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم): الشعر والشعراء، ط ليدن، ١٩٠٢.
- قصي (مجدي سليم): بحث التأويل وتطور مفهومه في النص الديني والأدبي.
- المغربي (ابن يعقوب): مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢.
- ميلاد (خالد): الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: دراسة نحوية تداولية، نشر كلية الآداب منوبة بالاشتراك مع المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ٢٠٠١.
- المعاجم العربية:**
- ابن منظور (جمال الدين): لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)
- المعجم الوجيز: دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣.
- المراجع الأجنبية:**
- Anrico Arcaini: Principes de linguistique appliquée, Paris Bibliothèque 2 scientifique Payot, 1972.
- Bakhtine Volochnicov: le marxisme et la philosophie du langage, éd, minuit, France.